كانت صديقتي ..

لا أدرى ما العلاقة بين الغروب والحنين، تتملّكني هذه الحالة دائمًا وقت الغروب تنتهي بسماع صوت الأذان، سيّما بعد أن أصبحت في هذا المكان الموحش.

تملّكتني تلك الحالة اليوم مبكرًا، لم يأتِ الغروب بعد، لكن بوتقة الحنين قد تفجرت، وتذكرت كل الخائنين، غريب أن يحن قلبي إلى من باعوه بثمن بخس..!

قلت لها -يوم أن كنا نسير على الكورنيش في تلك الليلة- أنها أقرب الأصدقاء إلى قلبي، كنت أعلم أنني أكذب، فليس لدي أصدقاء غيرها حتى تكون أقربهم، ردت بصوتها العذب:

_ لا أعرف لي صديقة غيرك.

_ هل تذكرين يا نهال، أول يوم التقينا فيه؟

قالت وقد لمعت عيناها، وشردت قليلًا:

_طبعًا.

ضحكتُ بشكل هستيري، ثم استطردت:

_ يوم أن سقطت الباروكة عن رأسي، فضحك الجميع، وسخروا من تلك الرأس الفارغة، إلا أنتِ.. لم تفعلي.

ضحكت هي الأخرى، ثم قالت:

_ يومها اعتقدتُ أنكِ مريضة، لم أكن أعلم أنك مجنونة وأن تلك هوايتك..!

_ عشر سنوات مضت على ذلك اليوم، عمرٌ كما تقول أمي.

قالت وهي تنظر إلي مستفهمة:

_ ما الداعي الآن لسيل الذكريات هذا يا تُرى..؟

_ نتسلى قليلًا، نقبر الوقت الذي لا نملك أكثر منه.
قالت وهي تنظر إلى الساعة في يدها:
_ نتمشى على الكورنيش في هذا الوقت المتأخر، أليس هذا جنونًا؟!
_ أن تنظري إلى الأمور نظرة قاصرة وتصدري الأحكام وفقًا لها، غباء منقطع النظير، أليس هذا كلامك؟
_ ماذا بك اليوم يا ميرنا؟
_ جربي مرة أن تكوني مجنونة يا عزيزتي، افعلي ولا تبالي بما يقال..!
_ تعرفين أني لست كذلك..
نعم.. هي لا تحب التصرف بجنون، ربما هذا ما جمّل صورتها في عينيه، هي الأقرب إلى طباعه، بينهما تشابه يصل أحيانًا إلى حد التطابق، لكنه اختارني من البداية، قال إنه يحبني وصدّقت، يا لسذاجتي..!
_ ميرنا، أين ذهبتِ؟ هل أحدّث نفسي؟!
_ نعم نعم أعرف، ترتبين لكل شيء، لا تفعلين دون هدف، تهتمين كثيرًا بما يقوله الناس، ترسمين حدودًا لحياتك وتكرهين الخروج عنها.
_ وهل في ذلك عيب؟
_ بالطبع لا، وصداقتنا خير دليل، استطعنا أن نكون أصدقاء، رغم اختلافنا.
_ الاختلاف لا يعني التنافر.
_ بالتأكيد.
قالت وقد استبدّ بها الضيق:

_ هيا لنذهب من هنا، يقلق شريف عليكِ إذا تأخرتِ.
ارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة، ثم قلت:
_ زوجي العزيز، هو يعرف أننا معًا الآن، يطمئن كثيرًا لوجودي معكِ، تعرفين..!
ارتبكت قليلًا، عبثت بأصابعها، ثم قالت وهي تخفي يديها في جيوب معطفها:
_ ألا تشعرين بالبرد حقًا؟!
_ ليس كل ما نشعر به يكون صادقًا بالضرورة..!
_ لا وقت لجنونك هذا، فلنذهب، لم أنتهِ من تحضيرات الحفل، ليكن بعلمك.
غدًا عيد ميلادي، تعدُّ له (نهال) منذ أسبوع، هي تفعل الكثير من أجلي، قالت إنها أعدّت لي مفاجأة ستسعدني كثيرًا، لكنها حتمًا لن تكون أجمل من مفاجأتي يا صديقتي العزيزة.
_ لنعد يا ميرنا، أشعر بالتعب.
_ ليس قبل أن نعتلي هذا السور، أريد أن أصرخ بأعلى صوت في هذا السكون الكئيب، فعلناها يومًا، ألا تذكرين؟!
_ أذكر، ولكن...
قاطعتها وأنا أضحك ضحكة عالية رنّت في سكون الليل، جذبتها من يدها الرقيقة الناعمة:
_هيا.. هيا، لا تقلقي، سأمسك بيدك جيدًا أيتها الجبانة.
ارتقينا السور، وما أن استوى وقوفنا، أطلتُ النظر إلى عينيها الزرقاوين، احمرّ أنفها ووجنتاها من شدة البرد، فازداد جمالها، قالت وقد نفد صبرها:
_ إن أصابني الزكام، سأورطكِ في تحضيرات الحفل.

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أوجه إليها سؤالًا لا أنتظر إجابته:
_ لماذا يا نهال؟!
كأنها لم تفهم مرادي، نظرت إليّ بعينين متسائلتين، فتملكني الغضب.
_ آخر من توقعتُ خيانته هو أنتِ يا نهال، صدمتي فيه ليست شيئًا أمام صدمتي فيكِ، طعنتني في ظهري رغم ما بيننا.
ارتجفت يديها، وزاد احمرار وجهها، حاولت ابتلاع ريقها، نزعت يدها من يدي، ثم قالت:
_ عن أي شيء تتحدثين؟
قلت وأنا أمسك بذراعها بقوة:
_ لقد رأيت محادثاتكما على هاتفه، عرفت كل شيء، لا تنكري يا صديقتي العزيزة.
_ يبدو، يبدو أن الجنون قد بلغ بكِ مبلغه..
خرج مني صوت قهقهة هزّ قلبي رعبًا، دفعتها بكل قوتي لتسقط في الماء، ومعها صداقتنا.